في النقد الأسطوري

د/لزهر مساعدية

جامعة ميلة

الملخص:

نظرا لما تتمتع به الأسطورة من مرونة وقابلية للتوظيف في الخطاب الأدبي، وكذا قدرتها على التعبير عما يصبو إليه المبدع ، إضافة إلى تحقيقها لغايات فنية و جمالية مقصودة بعينها .فإن جمع الدارسين قد تحلقوا بها على اختلاف مناهلهم واتجاهاتهم.

ولما كانت وبشكل خاص هدفا للأدب يستلهمها ويوظفها بشراهة كان لزاما استدعاء ما يسمى " النقد الأسطوري" أو " المنهج الأسطوري في النقد" (La mytho critique)، وظيفته تتبع ورصد الترسبات الأسطورية الكامنة في العمل الأدبي وما طرأ عليها من تغيير وتحول واقتضاب وتجزئة .

لذلك سوف نتناول في هذه الورقة البحثية مفهوم النقد الأسطوري و نشأته، و مرجعياته. ومنهجه عند أهم أعلامه.

Puisque le mythe jouit d'une flexibilité et d'une susceptibilité d'emploi dans le discours littéraire, ainsi que sa capacité d'exprimer les aspirations de l'auteur, en plus sa réalisation des objectifs artistiques et esthétiques bien spécifiques, cela fait qu'un ensemble de spécialistes l'ont rejoint malgré la différence de leurs sources d'inspiration et de leur visions.

Puisque le mythe était particulièrement un objectif pour la littérature qui lui inspire et l'utilise avidement, il est donc nécessaire de faire appel à ce qu'on nomme : la critique mythologique ou « la mytho-critique », son but est de suivre et d'observer les sédimentations mythologiques latentes dans le travail littéraire et ce qu'il lui arrive de changements, de concisions et de division.

Donc, nous allons essayer d'aborder dans cette recherche la notion de la **mytho-critique,** sa création, ses références et ses méthodes chez ses différents spécialistes.

المنهج الأسطوري في النقد:

النقد الأسطوري **Mythocitique** :هو ذاك النقد الذي" يبحث في النص عن الوحدات الأسطورية فيعود إلى الهيكلية الأسطورية الأولية ، ويبين ما أصابها من إضافات أو تزيينات . وهذا يعني ضبط الموضوعات التي تتجلى فيها الأسطورة الأولية ، ثم ضبط الحالات التي

تظهر فيها الشخصيات ، وفي النهاية وضع العمل في المكان المخصص له إلى جانب الأعمال الأخرى ، أو بمعنى آخر القيام بنوع من المقارنات لتحديد العمل الجديد"[1]

ولا يمكن بأية حال ادعاء أن هذا المنهج قد وصل درجة من النضج وأصبح منهجا مستقلا ومتكاملا خاصة وأن لا أدوات إجرائية ثابتة ومتفق عليها تتخذ في تطبيقه مقارنة بمناهج أخرى .

يقول" بول ديكسون" في ذا الصدد : «... ربما كان من المضلل إلى حد ما أن نشير إلى نقد الأسطورة بصيغة المفرد، في حين أن هناك في واقع الأمر اتجاهات عديدة مختلفة يمكن إطلاق هذا المصطلح عليها.»[2]

ولكن مهما يكن فلا يجب بأية حال أن نغفل أهمية المنهج في مقاربة أنواع خاصة من النصوص الأدبية.

1- نشأة النقد الأسطوري ومرجعياته:

يعد النقد الأسطوري نتاج العصر الحديث، و يستمد مرجعيته الأساسية من خلال ما قدمته الأنثروبولوجيا، وبوجه أدق الأنثروبولوجيا الثقافية التي تعود بدايات ظهورها إلى ما قبل القرن 19بقليل ، حيث تمثلت بما قدمه كل من "مورغان" و"فريزر" و"مالينوفسكي" من إسهامات ودراسات جسدت بحق النقد الأسطوري. يضاف إليهم دراسات " كارل غوستاف يونغ" الذي يعتبر المؤسس الرئيسي و الفعلي لهذا الاتجاه النقدي بما قدمه من مقاربات قد أسهمت في بلورة نظرية الأساطير[3].

و يرى أتباع القراءة الأسطورية للأدب أن "إمكانيات أية أسطورة لا يمكن أن تستغل إلا إذا أتيح لها الأديب الذي يفهم مغزاها لتعليق حالته بها ، و لايشترط أن يرتبط الأدباء بأساطير قومهم ، فليست الإقليمية بالفيصل في تقييم التعبير ، فضلا عن أن الأساطير في بدئها كانت لجدود ،و هؤلاء ورثوها للحفدة ، و كوننا نلمح في أساطير الشعوب جانبا من شخصياتهم ، فذلك لا يعفينا قط من تأكيد علائق قديمة في هذه الأساطير".[4]

أ-النقد الأسطوري عند " كارل يونغ" :

لقد كانت دراسات" كارل يونغ" مركزة على مفهوم " اللاشعور الجمعي" (الذاكرة الجمعية)، الذي هو عبارة" عن صور ابتدائية لا شعورية أو رواسب نفسية مختلفة لتجارب ابتدائية لا شعورية أسهم في تركها أسلاف العصور البدائية وورثت - بطريق ما- في أنسجة الدماغ، ويتم التعبير عن الوقائع العصرية في حياة أي مجتمع عن طريق ربطه بهذه النماذج،

إذ لابد أن يعرف الجديد بالقديم على أساس أن الجديد غامض غريب والقديم واضح مألوف"[5].

فالإنسان يرتد إلى ما وراء زمنه الحاضر إلى الزمن الغابر لاإراديا ليستحضر صور وتجارب القدامى بشكل وراثي وبذلك تكون الوراثة النفسية - وراثة اللاشعور الجمعي التي توحد بين أبناء الجنس البشري رغم تباعد البلدان و تباين المجتمعات-في مقابل الوراثة البيولوجية[6].

ويرى "يونغ" بأن اللاشعور الجمعي يتركب مما يعرف بـ: " الأنماط العليا" و التي تشير إلى صور كونية وجدت منذ أزمنة غابرة، حيث كان الإنسان مندمجا مع الكون و متحدا معه .[7]

فاللاوعي الجمعي قديم قدم الإنسان، نشأ بنشوئه مع الطبيعة غير مميز بين نفسه و بين الكائنات الأخرى من (حيوان ، جماد...) ومع ظهور الوعي ، سعى الإنسان إلى المعرفة ، فنشأت الأسطورة التي هي تمثل مواجهة الإنسان لمظاهر الطبيعة و الكون. و انقسم التفكير الإنساني بين الخير و الشر، بين الأعلى والأسفل ، بين العالم العلوي و العالم السفلي، بين الفردوس و بين الجحيم، ووفقا لهذا التصنيف نشأت الأنماط الكبرى نحو: الأب و الأم، الذكر و الأنثى، الأخ و الأخت، الأخ الأكبر و الأخت الكبرى، المنقذ و المضحي،... إلى غيرها من أنماط أولية.[8]

كما يرى "يونغ" أن عاملي " الذكورة" و "الأنوثة " يلعبان دورا بارزا في إنتاج الأنماط الأولية، وإنتاج الأدب أيضا. فلو أن الجنس البشري كان منقسما إلى قسمين منفصلين تماما هما "الذكر" و "الأنثى" لاستحال العيش، لأنه سوف ينشأ بينهما صراع مميت ، إنما ما مكن من التعايش بينهما هو ما يعرف بـ: " الأنيما" و " الأنيموس" فـ: "الأنيما" (الجانب الذكوري في المرأة) هو ما يجبرها على التعقل و التروي، و "الأنيموس" (الجانب النسوي الأنثوي في الرجل) هو ما يجبره على محاولة الاندماج و التوحد مع النصف الثاني.[9]

وكيف لا يزداد الاهتمام بآراء "يونغ"،بالنسبة للمشتغلين على حقل الأدب وهو الذي تناول العلاقات المتداخلة؟ والارتباط الوثيق بين كل من: علم النفس و الأسطورة و الأدب؟ حيث يرى "يونغ" أنه من الطبيعي، أن يلجأ الشاعر إلى استلهام الأساطير واستحضارها، من أجل تعبير أنسب وأفضل ، ولا تصبح حينها الأسطورة مصدر قوة الأعمال الأدبية إلا إذا وظفت بشكل سليم في موضع يستدعيها[10]، فالفرق مثلا " بين الشاعر الكبير والشاعر الصغير

، هو ان الصغير، حين يعبر عن نفسه ، لا يعبر إلا عنها ؛ أما الشاعر الكبير، فحين يعبر عن نفسه ، فإنما يعبر عن عصره كله - أي عن جوهره الحضاري"[11].

و قسم يونغ الإبداع الفني إلى نوعين[12]:

1. "سيكولوجي" وهو ما يعالج موضوعات موجودة في مجال الشعور، كالصدمات العاطفية، وتجارب الحب، وأزمة المصير،... وغيرها. وهذا النوع لا يتجاوز حدود التجارب الأساسية.
2. "الكشفي": وتكون التجارب في هذا النوع ليست عادية، إنما تستمد من أغوار النفس الإنسانية، وهي أزلية وستكون كذلك سرمدية فهي مختزنة في اللاشعور الجمعي.

وقد وجد علماء الأنثروبولوجيا في دراستهم المجتمعات الإنسانية المختلفة تشابهها من حيث موروثاتها كالعادات و التقاليد و الطقوس و الأفكار... و غيرها، ولم تقنع قضية "التأثير و التأثر" أو قضية" الأصل المشترك" في تفسير هذا التشابه لانعدام كثير من الروابط و الصلات بين هذه الشعوب المتباعدة المتقاربة. ولكن تبقى فكرة "الإرث" هي الفكرة التي ترتكز عليها دراسات المدرسة الأنثروبولوجية التي من أبرز روادها "إدوارد تايلور" (**Edward Taylor**) و السير "جيمس فريزر"(**James Frazer**) و " أندرو لانج" (**Andrew Lang**) وغيرهم واعتبارا من أن المجتمعات المعاصرة تحتفظ ببعض من الرواسب البدئية أتت نظرية "تايلور" في التطور الثقافي.[13]

وسعت الفلسفة الرمزية إلى فهم الطبيعة الإنسانية، وتفسيرها من خلال ما ينتجه الإنسان من رموز لغوية و ميثولوجية. وينظر " كاسيرر" إلى الأسطورة على أنها شكل رمزي للحياة[14]. و مبدؤه الأساس في نظريته هو أن أنماط النشاط الإنساني، و أشكالها الثقافية لا يجب أن نعتبرها شيئا في حد ذاته، بل يجب أن نعتبرها وظيفة إنسانية لا تتغير. فوظيفة الفن عند البدائي – في حالة وجوده- هي نفسها عند الإنسان المعاصر. و كل كائن عضوي يملك جهاز استقبال: يلتقط من خلاله المؤثرات الخارجية، وجهاز إرسال: يرد من خلاله على هذه المؤثرات ، إضافة إلى جهاز ثالث يربط بينهما يعرف بالجهاز الرمزي. فالأشكال الحضارية، والأنماط الثقافية المختلفة من دين وسحر وأسطورة وغيرها هي تعبيرات رمزية، هدفها تأدية وظيفة رمزية[15].

ب - النقد الأسطوري عند " أندري يولس " :

سعى " أندري يولس" إلى أن يؤسس لنظرية يتفرد بها ،تتخذ من وظائف المجتمع متكأ، فالخطاب عنده قريب جدا من العمل الاجتماعي الذي تحدد جملة وظائفه في ثلاث: الزراعة ، والصناعة أو الحرفة ، والكهانة التي هي مصدر التفسير. وهذه الوظائف تمثل ما يسمى بالرباط الاجتماعي ، الذي يربط المجموعة الاجتماعية : فالفلاح يتعامل مع الطبيعة ،والصناع يحاول أن يغير أشياء في نظام هذه الطبيعة ، أما الكاهن فيحاول تفسير الأشياء لتسهيل عمل كل من المزارع والصناع ،وبذلك يصبح العمل كاملا .[16]

و يتخذ " أندري يولس " من فكرة ثنائية التساؤل والإجابة منطلقا لتوضيح ما يدعوه بالشكل البسيط **(forme simple)**والذي يتحدد من خلال مساءلة الكون وظواهره فيرى أن الإنسان " يسائل الكون وظواهره بغية حملها على التعبير عن نفسها ، فيتلقى إجابة لغوية يتكون من خلالها العالم بظواهره انطلاقا من مركزية التساؤل والإجابة ، فهذا التعبير الكوني يتخذ شكلا ندعوه الأسطورة[17] .

ويرى "يولس " أن الأسطورة تتركب من سؤال وجواب. فالإنسان يتساءل ويلح على سؤاله، حتى يهتدي إلى الإجابة عنه ... وربما ذاك ما قاد إلى ما يسمى بالأسطورة الكونية، إذ تنشأ الأسطورة انطلاقا من المساءلة الحاصلة بين الإنسان والكون، فهي محاولة لصياغة تلك المساءلة صياغة لغوية فأصل الأسطورة عند يولس هو سؤال طرحه الإنسان على الكون، بمعنى؛ أسطورة التكوين، فهذا النوع من الأساطير ظهر إلى الوجود بعد تساؤلات الإنسان البدائي.[18]

ج- النقد الأسطوري عند نورثروب فراي:

يعد "نورثروب فراي" **(Northrop Fraye)** من أبرز النقاد الذين عنوا بالنقد الأسطوري، وأرسوا دعائمه، وربما يعد أول من أطلق اسم " النقد الأسطوري" على هذا النوع النقدي، في كتابه "تشريح النقد" ،حيث خصص له مقالا بعنوان: **Archetubal Criticism: theory of myths** فسر من خلاله كنه هذا النقد.[19]

ويقر "فراي" بانتمائه مدرسة "النقد الأسطوري"إذ يقول : " كانت أولى جهودي المستمرة في البحث محاولة لكتابة تعقيب موحد على كتب "وليام بليك" **w.Blake**التنبؤية إنها قصائد أسطورية الشكل : و كان علي أن أتعلم شيء من الأسطورة لكي أكتب عنها ، و

هكذا أكتشف ، بعد أن أنشر الكتاب ، أنني من مدرسة "النقد الأسطوري" التي لم أكن قد سمعت بها من قبل".[20]

ويتخذ" نورثروب فراي" في من مفهوم "الميثة" (**mythos**)منطلقا لمحاولة تأسيس منهجه و "الميثة" هي الأسطورة في حالتها الأولى، حينما كانت الوظيفة الطقسية هي التي تحددها، فهي مرحلة سابقة للأسطورة، إذ أن الأسطورة في حقيقة الأمر تعد نوعا من التحول و الانزياح عن الأصل.فالميثة معتقد، والمعتقد يتطلب طقوسا، والطقوس لم تنشأ من منطلق العبث ، فهي تؤدي وظيفة اجتماعية وهي ذات دلالة.[21]

ويرى"نورثروب فراي" أن الطبيعة تقوم بدورة كاملة، تنتج السنة الشمسية، التي تنقسم بدورها إلى أربعة فصول، لكل فصل من الفصول ميثته الخاصة (وظيفة طقسية خاصة به) وهي: 1. ميثة الربيع (الكوميديا)

2. ميثة الصيف (الرومانس)
3. ميثة الخريف (التراجيديا)
4. ميثة الشتاء (السخرية والهجاء).

و لا ينشأ الأدب إلا من هذه الميثات الأساسية الممثلة لدورة الطبيعة. كما لا يخرج المبدع في الأحوال جميعها عن هذه الميثات[22].

ومن هذا المنطلق فلا يوجد فرق كبير بين الأدب وبين الأسطورة، إلا ما كان من "الإنزياح" (**displacement**)،فالأدب في حقيقته هو: " أسطورة منزاحة عن الأسطورة الأولية التي هي الأصل ، وهي البنية وكل صورة في الأدب مهما تراءت لنا جديدة ، لا تعدو كونها تكرارا لصورة مركزية مع بعض الانزياح ، ومع مطابقة كاملة أحيانا أخرى "[23].

ويميز فراي بين ثلاث منظومات من الأساطير والرموز الأولية في الأدب، ألا وهي[24]:

1- الأسطورة التي لم تنزح ، وهي تلك الأسطورة التي تهتم بعالمي الآلهة والشياطين كعالمين متضادين.
2- الاتجاه الرومانسي: ويشتمل على نماذج أسطورية في عالم التجربة البشرية كالفروسية في العصور الوسطى مثلا.
3- الاتجاه الواقعي: وهو اتجاه ينصب اهتمامه بالمضمونأكثر من الشكل، إذ الأدب الساخر يبدأ أول ما يبدأ بالواقعية ثم يعرج على الأسطورة.

فالمنهج الأسطوري يقوم بتأطير" الأدب خاصة ،و الإبداع عامة ،في مجال ضيق ، لا يستوعب مصادر الأدب ، وتنوعها وتحولاتها ، وفراي لايكتفي في هذا المنهج بنفي الواقع و الإجهاز على دوره في عملية الإبداع ، فحسب ، بل يسلب هذه العملية كل صلة بشرطها التاريخي الجمالي"[25] .

د-النقد الأسطوري عند بيير برونيل:

تقوم مقاربة " برونال " النقدية الأسطورية على ثلاث *مبادئ* ألا وهي[26]:

١- الإنبثاق (التجلي): (**émergence**): ويراد به ما يرد في النصوص الأدبية من رموز أسطورية، والتي قد تكون واضحة تمام الوضوح،أو بعض الشيء.

٢- المرونة (المطاوعة): (**flexibilité**): ويراد بها قابلية العنصر الأسطوري للتشكل وفق ما يريده المبدع، كما يقصد بها أيضا سهولة اقتباس الأسطورة وتوظيفها في الأعمال الأدبية.

٣- الإشعاع: (**irradiation**): وهو أحد أهم خصائص العناصر الأسطورية ، إذ يملك العنصر الأسطوري القدرة على الإشعاع رغم صغره . فقد يكون هذا العنصر "عنوانا" أو إشارة من الكاتب أو غيرها...

ونختم هذا المقال بمقولة لمرتاض تصلح أن تكون نتيجة لهذا التتبع : " لا يستطيع أحد من العلماء الإنسانيين المعاصرين سواء أكان سوسيولوجيا أم إثنولوجيا، أو ثقافانيا(**culturaliste**) أم فولكلوريا، أو مؤرخ أديان، أم مؤرخ أفكار،...أم نفسانيا،...أم فيلسوفا: أن يضرب صفحا عن الأسطورة في دراساته"[27]

الهوامش:

[1] غسان لافي طعمة.النقد الأسطوري. ينظر الموقع الالكتروني: http://ouruba.alwehda.gov.sy30/12/2012

[2] بول.ب. ديكسون.الأسطورة و الحداثة. ترجمة: خليل كلفت.المجلس الأعلى للثقافة.1998.ص 27.

[3] حنا عبود. النظرية الأدبية الحديثة و النقد الأسطوري. دراسة من منشورات اتحاد الكتاب العرب.1999. النسخة المضغوطة. القابلة للتنزيل. ينظر الموقع: ww.awu-dam.org.

4 أحمد كمال زكي .دراسات في النقد الأدبي. مكتبة لبنان .ط2 .بيروت .1997 .ص 178 .

5 جميل حمداوي. الاتجاه الأسطوري في النقد العربي الحديث.ينظر الموقع.www.alwatanvoice.com

6 عبد الفتاح محمد أحمد.المنهج الأسطوري في تفسير الشعر الجاهلي. دار المناهل للطباعة و النشر.ط 1. بيروت. 1987.ص 15- 18.

7 المرجع نفسه. ص 84.

8 حنا عبود. المرجع السابق. ص 44.45.

9 المرجع نفسه. ص 54.

10محمد شاهين. الأدب و الأسطورة .المؤسسة العربية للدراسات و النشر.ط 1. بيروت. 1996..ص 17.
11 أدونيس . زمن الشعر. دار العوده.بيروت ط2 .1978 ص173 .
12 عبد الفتاح محمد أحمد.المرجعالسابق.ص 18- 19.
13 المرجع السابق.ص38-41.
14 المرجع نفسه.ص 87.
15 المرجع نفسه. ص 62- 63.
16 عبد الحليم منصوري.الملامح الأسطورية في رواية الحوات والقصر للطاهر وطار.ينظر الموقع الالكتروني:
. www.khayma.com/wattar/lire/chahadat/pecheur/le- pecheur
André Jolles. formes simplesنقلا عن :.
17 الموقع الالكتروني نفسه.
18 نبيلة إبراهيم.أشكال التعبير في الأدب الشعبي.دارغريب.القاهرة.ص17 .
19 حنا عبود.المرجع السابق.ص 117.
20 نوتروب فراي : الأسطورة و الرمز.ترجمة جبرا ابراهيم جبرا .المؤسسة العربية للنشر و الدراسات .بيروت . ط2. 1980 .ص 09 .
21 زينب الصعبي .النقد الأسطوري ونظرية الدوائر المغلقة.ينظر الموقع الالكتروني:
http://www.an nour.com/old/202/culture
22 نورثروب فراي.نظرية الأساطير في النقد الأدبي.ترجمة: حنا عبود .دار المعارف.ط 1.1987.ص 11. 12.
23 المرجع نفسه.ص17
24 زينب الصعبي.النقد الأسطوري ونظرية الدوائر المغلقة. ينظر الموقع الالكتروني: http://www.an-nour.com
25 نضال الصالح.النزوع الأسطوري في الرواية العربية المعاصرة. دار الأملعية للنشر. ط1 .2010. ص11 .
26 دانييل هنري باجو.الأدب العام والمقارن.ترجمة: غسان السيد.دراسة من منشورات اتحاد الكتاب العرب.1997. ينظر الموقع: www.awu-dam.org
27 عبد المالك مرتاض، الميثولوجيا عند العرب، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1989، ص14.

*** *** ***